﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التَّوبة: 113]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان وُجوب البراءة من أموات المُشركين مهما كانت قرابتُهُم

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِنَ الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَتِ البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِنَ الأسبابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كَثُرَتْ في هذه السُّورةِ الأوامرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشرِكينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهْيِ عنِ الدُّعاءِ لهم، جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَتْ إليه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرۡبَىٰ﴾: أي: ولو كانُوا مِن أقارِبِهم[3]، وأصلُ قَرُبَ يَدُلُّ على خلاف البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، وفلان ذو قَرابَتي، وهو مَنْ يَقْرُبُ منك رَحِمًا، وفلانٌ قَريبي، وذو قرابتي كذلك، والقُرْبَةُ والقُرْبَى: القَرابَةُ[4].

2) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسمٌ من أسماء النَّار، وأصلُ الجحيمِ الحرارةُ

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/19، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/46، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/45.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرب).

وشدَّتُها، وجَحَمَتُ النَّارَ: أَضرمْتُها، وزِدْتُ في توقُّدِها، والجاحمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ[1]، والجحيمُ: شِدَّةُ تَوَقُّدِ النَّارِ وإضرَامِها[2]، ويُقالُ لكُلِّ نارٍ عظيمةٍ في مَهواةٍ حجيمًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهيُ عنِ الدُّعاءِ للمُشركين والاستغفارِ لهم بعدَ ثُبوتِ موتِهم على الكُفْرِ

لا ينبغِي للنَّبيِّ ولا ينبغِي للمُؤمنين أن يدعُوا بالمغفرةِ للمشركين، ولو كانُوا أقربَ النَّاسِ إليهم مِن بعْدِ ما ماتُوا على شِرْكِهِمْ باللّه وعبادةِ الأوثان، واتَّضحَ لهم أنَّهم من أصحابِ النَّار، لموتِهم على الشِّركِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

منعُ الاستغفارِ للمُشركين بعدَ اليَأْسِ من إيمَانِهم نسْخًا للتَّخْييرِ السَّابقِ بالاستغفارِ لهم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لأنّه استئنافٌ نُسِخَ به التَّخييرُ الواقعُ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80]، لأنَّ الآيةَ تدلُّ علَى التّسويّةِ بين أن يَستغفرَ النَّبيُّ ﷺ لهم وبين أن لا يَستغفرَ، فأرادَ اللّه نسْخَ ذلك بعد أن درَجَ في تلقِّيه على عادةِ التَّشريعِ في غالبِ الأحوالِ[4]، ويمكنُ أن لا يكونَ هناك نَسْخٌ، وتُحملُ كلُّ آيةٍ على معنى لا يتعارضُ مع أختِها، فالآيةُ هنا تنهَى عنِ الاستغفارِ لهم، وتلك تبيّنُ أنّ استغفارَه لهم لو كانَ، فإنّه يتساوَى مع عدمِه، فالأمرُ في قولِه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80] هو للتّسويّةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنّفي في الآية:

الاستبعادُ المُقتضِي للتَّأْنِيبِ

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جحم).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (جحم).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جحم).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.

وهذا التّركيبُ البلاغِيُّ يَدلُّ على استبعادِ أن يكونَ منَ النَّبيّ والمؤمنين استغفارٌ وترحّمٌ للمُشركين، ولو كانُوا من أهليهم وذوِي قرابتهم، إذا تبيّنَ لهم أنّهم من أهلِ الكُفرِ والضّلالِ، فالمشركون أعداءٌ للّه، والمؤمنون أولياءُ للّه، ولن تجتمعَ الوَلايةُ للّه، والولايةُ لأعداءِ اللّه، واللّه ﷻ يقولُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22][1].

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ للمُشركين

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾، لأنّه يأتي في القرآنِ على وجْهَيْن:

الأول: بمعنى النّفْي نحو: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النّمل: 60].

الثّاني: بمعنى النّهي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 53].

والمرادُ هنا المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ ﷺ والمؤمنين للمُشركين، وأصلُ هذا التّركيبِ في الكلامِ أنّه في نفْيِ الأفعال، فلمّا أُريدتِ المبالغةُ في النّفْيِ عُدلَ عن نفْيِ الفعْلِ إلى نفْيِ المصدرِ الدّالِّ على الجنْسِ وصارَ معناه: ما كان له أن يفعَلَ، ويقالُ أيضًا: ليس له أن يفعلَ[2].

وعلى هذا يكونُ هذا التَّعبيرُ أبلغَ من قولِهم: ما جازَ للنّبيِّ والّذين آمنوا أن يَستغفرُوا لكونِه نفيًا للشّأنِ الّذي هو أبلغُ من نفْيِ الفعْلِ، لأنّه نفْيٌ مُتعلّقٌ بالسّببِ المُقتضِي له، وفيه إشارةٌ إلى لُطفِ التَّعبيرِ في توجيهِ النّبيّ ﷺ والمؤمنين.

دلالةُ البدْءِ بالنَّهي للنّبيّ ﷺ:

النّهْيُ للنّبيّ ﷺ عن فعْلِ شيءٍ هو نهيٌ لغيرِه ضمْنًا

بدأَ القُرآنُ الكريمُ في إيرادِ النّهْيِ للنّبيّ ﷺ بعدمِ الاستغفارِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/904.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294 - 298.

للمشركين بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، وإذا وُجِّهَ النّهْيُ إلى النّبيِّ فيكونُ من بابٍ أَولَى للمؤمنين، لأنّه ليس لهم الحقُّ في ذلك، لأنّ اللّه لو أرادَ أن يُكرمَ أحدَ الآباءِ ممّن أشركُوا لأجْلِ أحدٍ لأكرمَ آباءَ النّبيِّ ﷺ إن كانُوا غيرَ مؤمنين[1].

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

النّبوّةُ والإيمانُ مانِعانِ منَ الاستغفارِ للمُشركين

دلّتِ الواوُ على العلّةِ الجامعةِ لمنعِ الاستغفارِ للمُشركين الّذين ماتُوا على شِركهم[2] من ناحيَتَيْن: الأُولَى: أنَّ النُّبوَّة والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفارِ للمُشركين، وذلك من خلالِ الجمْعِ بينَهما بالواو في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والثّانيّةُ: عدمُ الاستغفار على أنّ المعنى: ليس لهم أن يستغفرُوا، والأمرانِ مُتقاربانِ.

معنى: ﴿مَا﴾، ودلالةُ دُخولِها على: ﴿كَانَ﴾:

المبالغةُ في التَّنزُّه عن هذا الاستغفارِ

جاءت صِيغةُ النَّهي بطريق نفْيِ الكون مع لام الجُحُود مبالغةً في التَّنزُّه عن هذا الاستغفار، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116][3]، وهذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهي، ويُسمَّى (نفيَ الشَّأنِ)، وهو أبلَغُ في نفْيِ الشَّيءِ نَفسِه، لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَب المُقتَضِي له[4].

نُكتةُ تقديمِ خبرِ ﴿كَانَ﴾ على اسمِها:

التَّنبيهُ على أنَّ النُّبوَّةَ والإيمانَ يمنعانِ منَ الاستغفارِ للمُشركين

قولُه تعالى: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عَطْفٌ على النَّبيّ، و(أنْ) وما في حيّزِها اسمُ كان مُؤَخَّرٌ[5]، وقُدِّم ذِكْرُ النَّبيِّ والمؤمنين على ذِكْرِ الاستغفار تقديمًا لذِكْرِ الذَّوات قبل الأفعالِ وتنبيهًا على أنَّ النُّبوَّةَ والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفار للمُشركين[6]،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ، ص: 5526.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/90.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/44.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 11/46.
(5) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.

فنبّه على الوصْفِ الشّريف منَ النّبوّةِ والإيمانِ، وأنّه مُنافٍ للاستغفار لمَنْ مات على ضدِّه وهو الشّركُ باللّه[1].

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ لمنْعِ المؤمنين أن يَستغفرُوا للمشركين، لأنّ المؤمنين لمَّا سمعُوا تخْييرَ النَّبيّ ﷺ في الاستغفارِ للمشركين في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 80] ذهبوا يَستغفرون لأهليهم وأصحابِهم منَ المشركين طمعًا في إيصالِ النَّفعِ إليهم في الآخرةِ، فأصبحَ ذلك ذريعةً إلى اعتقادِ مُساواةِ المشركين للمؤمنين في المغفرةِ فينتفِي التَّفاضلُ الباعثُ على الرَّغبةِ في الإيمان، فنهى اللّه النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين معًا عنِ الاستغفار للمشركين بعد أن رخَّصَهُ للنَّبيّ ﷺ خاصَّة[2]، وسببُ المنعِ ظاهرٌ من قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[3].

النّهيُ عنِ الاستغفار للمشركين عامّ لجميع المؤمنين لا رُخصةَ فيه

سِرُّ التّعبيرِ بالنّبوّةِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالنّبوّة دونَ الرّسالةِ، لأنَّ مادّةَ النّبوّةِ تدلُّ على الارتفاع للشّيءِ عن غيرِه، والنّبيُّ مرتفعٌ عنِ الخلْقِ باصطفاءِ اللّه له، فلفظةُ النّبيّ تدلُّ على شرفِه، لأنّه مُنبّأٌ منَ اللّه ومُنْبئٌ عنه، ولمَّا كان المقامُ فيه ملاطفةٌ للنّبيّ ﷺ باستغفاره للمشركين، رُفعَ توهُّمُ وجودِ خاطرٍ في القلبِ منَ الانتقاص من حقِّه ﷺ، فكانت لفظةُ النّبيّ الّتي تُدلِّلُ على علُوّ قدرِه ﷺ.

مقامُ النّبوّةِ في رِفعَةٍ وعُلُوٍّ ويأتي وضْفُ النّبوّةِ في مقامِ الائتساءِ

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الموصول وصِلتِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ باسم الموصولِ وصِلتِه، للإشارةِ إلى أنّ مضمونَ هذه الصّلةِ ممّا اشتهرَ بين النّاس حتى صارت كأنّها عَلَميَّةٌ عليهم، وللدّلالةِ على رُسوخِ الإيمان في قلوبِهم، فما أن يدعُوهم ربُّهم إلى

الشّأنُ في المؤمنِ المسارعةُ إلى تنفيذِ ما أمرَ الله به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/43.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/60.

أمرٍ إلا وسارعُوا بالإيمان والتّصديق والتّطبيق، ولمَّا كان المقامُ هنا في منْعِهم منَ الاستغفار للمشركين، كان التّعبيرُ بالموصول وصِلتِه هو الأوفقُ في سياق الآية.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم: ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دون الفعل:

بيان رُسوخِهم في الشِّرك واستِمرارِهم عليه

آثرَ التّعبيرَ بالاسمِ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دون الفعل (أَشرَكُوا)، للدّلالة على أنّهم راسخون في الإشراك في عبادة ربّهم[1] حتى ماتُوا عليه، بخلافِ الفعلِ (أَشْرَكوا) فيَحملُ معنى التّجدُّدِ في وقوعِ الشِّرْك منهم، لكنّه لا يدلُّ على موتِهم عليه، بدليلِ أنَّ بعضَ المشركين بل كثيرًا منهم من أهلِ مكّةَ أسلمُوا ودخلُوا في دين الله أفواجًا.

وفيه إشارةٌ إلى إخراج الأحياء، فيجوزُ الدّعاءُ لهم بالهدايةِ، ويكونُ سياقُ الآية فيمَنْ ماتَ على الشِّركِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاستغفارِ دونَ غيرِه: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾:

لفظ الاستغفار عامٌّ، فتدخل تحته ألفاظ كثيرة

آثرَ التّعبيرَ بالاستغفار دُون غيرِه، لتعدُّد معانيه، فالأصلُ أنّه يُستعملُ في طلبِ المغفرةِ منَ الشّركِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [هود: 90]، ويأتي بمعنى الدّعاءِ بقولِهم: (اللهم اغفر لهم)، ويُطلقُ على الصّلاةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17] يعني: المصلّينَ، ويأتي بمعنى الاستغفارِ على حقيقتِه من طلبِ المغفرةِ بالمقالِ والفعالِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: 29]، وأغلبُ هذه المعاني مرادٌ في سياقِ الآية، لأنّهم كانوا يَستغفرون لمَنْ مات ويدعُون لهم بالمغفرة، ونُهُوا عن ذلك.

حرصُ المؤمنين على الاستغفارِ لأقاربِهم منَ المشركين حتّى ورد النّهيُ عن ذلك

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالمصدرِ المؤوّلِ المكوَّنِ من (أن) والفعْلِ ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ (استغفار) للدّلالةِ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/30.

ملاحظةِ الزَّمنِ، فكأنّهم يحرصُون على هذا الاستغفارِ وأنّه يتجدّد وقوعُه منهم.

دلالةُ اللّامِ: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

أثرُ الشّركِ وشُؤمُه على المشركين

دلّتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على اختصاصِهم بهذا النّهي الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾ لأجلِ المشركين، ويُفهمُ من ذلك أنَّ مانعَ الاستغفارِ للمشركين هو شِركُهُم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(المشركين):

لفظةُ الشِّركِ هيَ الأنسَبُ لسياقِ الآياتِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ(المشركين) دونَ (الكافرين)، لوجودِ فرْقٍ بينهما، فالكافرُ هو الَّذي يَجحدُ الوحدانيّةَ أوِ النّبوّةَ أوِ الشّريعةَ أو ثلاثتَها، ويُطلقُ وصْفًا لمَنْ لا إيمانَ له، فإنْ أظهرَ الإيمانَ وأبطنَ الكفرَ فهو المنافقُ، وإنْ كفرَ بعْدَ إيمانٍ فهُو المرتدُّ، أمّا المشركُ فهو مَنْ أثبتَ شريكًا للّه في عبادتِه أو سوَّى بين الخالقِ والمخلوقِ أو مَنْ جعلَ للّه أندادًا، وعلى هذا فاختيارُ لفْظِ المشركين هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، لأنّها تتحدّثُ عن مُشركِي مكّةَ الّذين لهم قرابةٌ برسولِ اللّه ﷺ وببعضِ المؤمنين[1].

معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

التَّشديدُ في النَّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشركين على أيِّ حالٍ كانُوا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: ولوفي حال كونِهم أُولي قُربى، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على حالٍ مقدَّرةٍ[2]، فَتَضَمَّنتِ الآيةُ النَّهيَ عنِ الاستغفارِ لهم على أيِّ حالٍ كانُوا[3].

فائدةُ الخبرِ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

بَيَّن الخبرُ في هذه الآيةِ أنَّه تجبُ البراءةُ عن أمواتهم، وإن كانُوا

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.

في غايةِ القُربِ منَ الإنسان كالأب والأمّ، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ البراءةِ منهم على أقصَى الغاياتِ[1].

المبالغةُ في البراءةِ منَ المشركين على أقصَى الغايات

سِرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ معَ دُخولِهم في لفظِ (المشركين):

جاء التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ مع اندراجِهم في لفظ (المشركين) للمبالغةِ في إظهار البراءةِ منَ المشركين والكافرين والمنعِ منَ التّواصلِ معهم ولو كانُوا في غايةِ القُربِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الآيةَ بيانٌ لاستقصاء أقربِ الأحوالِ إلى المعذرةِ، كما هو مُفادُ (لو)، أي: فأَولى إن لم يكونُوا أُولي قربى، وهذه المبالغةُ لقطعِ المعذرةِ عنِ المخالفِ، وتمهيدًا لتعليمِ مَنِ اغترَّ بما حكاه القرآنُ من استغفار إبراهيمَ عليه السلام لأبيه في نحو قولِه تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشُّعراء: 86]، ولذلك عقبَه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

لا قيمةَ ولا اعتبارَ للقرابةِ المشركةِ بالله والمُعاديةِ لدينِه

معنى(لو) وفائِدتُها في الكلامِ:

(لو) تأتِي لاستقْصاءِ ما لولاهَا لم يكُنْ ليَدخُلَ فيما قبْلَها ما بعْدَها، ودَّلتْ هنا على المبالغةِ في إظهار البراءةِ عنِ المشركينَ والمنافقينَ والمنْعِ من مُواصلَتِهم ولو كانُوا في غايةِ القُرْبِ[2].

المبالغةُ في إظهارِ البراءةِ عنِ المشركين والمنافقِين

فـ(لو) هذه تفيدُ الغايةَ لمعطوفٍ عليه يُحذَفُ حذفًا مُطَّردًا للعلْم به، والمرادُ أنَّه ليس ممَّا تُبيحُه النُّبوَّةُ ولا الايمانُ ولا ممَّا يَصِحُّ وقوعُه من أهلِهما: الاستغفارُ للمُشركين في حالٍ منَ الأحوالِ[3].

فائدةُ دُخول (كان) في: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

لمَّا كان أولُو القُربى لهم في الأصل حَقُّ البرِّ وصِلةِ الرَّحم، وكانت عاطفةُ القرابةِ تقتضِي الغيرةَ عليهم وحبَّ المغفرةِ لهم، ناسبَ ذِكْرُ

شُمولُ المنْعِ منَ الاستغفارِ لجميعِ المشركين مهمَا كانتِ الصّلةُ بينَهم

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/512.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.

هذا الكوْنِ لاستقصاءِ أحوالِ الموصُوفِين حتَّى لو كانوا أُولي قُربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدمُ جوازِه أَوْلَى[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه القرابةَ مُتأصّلةٌ ومُتحقّقةٌ، لأنَّ لفظَ (كان) يدلُّ على تحقُّقِ الفعْلِ في الزّمن الماضِي ولتَمييزِها عنِ القرابات المجتمعيّةِ النّاتجةِ عن أسبابٍ فرعيّةٍ كقرابةِ المُصاهرةِ والتَّحالفِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أُوْلِى﴾:

شـدّة المصاحبةِ والاتّـــصـــالِ والتَّخصيص

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿أُوْلِى﴾ دون (ذو) لوجودِ فرْقٍ بينَهما، فلفْظُ ﴿أُوْلِى﴾ يدلّ على شِدَّةِ المُصاحَبةِ ولا تُستعملُ إلا في ما كان مُتعلّقُها مُتّصلًا جُزءًا أو عُضوًا أو صفةً أو حالةً أو عملًا لازمًا أو شأنًا من شُؤون الشَّخصِ أو مثلَها، وتُستعملُ في المعاني المحسوسةِ نحو ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى﴾ [ص: 45]، ﴿أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾، والمعاني المعقولةِ نحو: (أولي العلم) و(أولي النُّهَى)، أمّا كلمةُ (ذو) فتأتي على وجهيْن: أحدُهما يُتوصّلُ به إلى الوصْفِ بأسماءِ الأجناسِ والأنواعِ، ويُضافُ إلى الظّاهرِ دون المُضمَرِ ويُثنَّى ويُجمعُ ولا يُستعملُ شيءٌ منها إلّا مُضافًا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]، ونحو: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 83]، والثّاني في لفظِ (ذو) لغةٌ لطَيِّئ يستعملونَه استعمالَ (الّذي)، ويُجعل في الرّفعِ والنّصبِ والجرِّ والجمعِ والتّأنيثِ على لفظٍ واحدٍ[2].

وبناءً على هذا المعنى اللّغويِّ لكلٍّ منهما نجدُ أنّ ﴿أُوْلِى﴾ تدلُّ على شدّةِ المصاحبةِ والاتّصالِ، بخلافِ كلمةِ (ذو) فإنّها أعمُّ استعمالاً، يُقالُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرّحمن: 12]، ﴿ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ لفظِ ﴿أُوْلِى﴾ في

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذو).

قوله: ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، لأنّها تدلُّ على مَنْ هم في المرتبةِ الكاملةِ الثّابتةِ منَ القرابةِ، ولا تعمُّ مطلقَ القرابةِ، بخلافِ (ذو) في قولِه تعالى: ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فإنّها تدلُّ على عمومِ القرابةِ فهي أعمُّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضّميرِ عنِ المشركين:

لا قيمةَ للإنسانِ أن يُذْكَرَ ولا يُنْكَرَ إلّا بالإيمان

عبّرَ بالضّميرِ لِسَبْقِ ذكْرِ الاسمِ المُظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾، وفيه إشارةٌ للدّلالةِ على أنّهم ليسُوا أهلاً للذّكْرِ بسببِ شِركِهم، إذْ قيمةُ الإنسانِ في إيمانِه باللّه وعُبوديّتِه لخالقِه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾:

بيانُ العِلّةِ المانعةِ من هذا الاستغفارِ

دلَّ التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ على أنَّ النّهيَ عنِ الاستغفارِ للمُشركين إنّما هو من بعدِ التّحقّقِ أنّهم ماتُوا على الشِّركِ، وأنّهم أصبحُوا في أصحابِ النّارِ، وهؤلاءِ هم الّذين بلغتْهُمُ الدّعوةُ[1]، أي أنَّ العلّةَ المانعةَ من هذا الاستغفارِ هو تَبَيُّنُ كونِهم من أصحابِ النّارِ، وهذه العِلّةُ لا تُفرِّقُ بين الأقاربِ والأباعدِ[2].

دلالةُ تقييدِ النّهيِ بالتّبيُّن: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾:

الإشارةُ إلى جوازِ الدُّعاءِ للحَيِّ ما لم يمُتْ على الشِّركِ

تقييدُ النّهيِ بالتّبيُّنِ يدلُّ على جوازِ الدُّعاءِ للحيِّ، فإنَّ القَصْدَ بالاستغفارِ الإقبالُ به إلى الإيمانِ المُوجِبِ للغُفرانِ[3]، لأنَّ ذلك صريحٌ في أنّه بعدَ الموت[4]، وفيه دليلٌ على جوازِ الاستغفارِ لأحيائِهم، فإنّه طَلَبُ توفيقِهم[5].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

مَنْ ماتَ ولمْ يُؤمنْ فقدْ تحقَّقَ موتُه علَى الشّركِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ المصدريَّة، للدّلالةِ على أنَّ أمْرَ البيانِ على موتِهم على الشّركِ ظاهرٌ وواضحٌ، والتّقديرُ: من بعدِ بيانِ وظهورِ أنّهم ماتُوا على شِركِهم.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/904.
(2) القنوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، ص: 347، والزُّحيلي، التّفسير المنير: 11/60.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 9/30.
(4) السُّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 145.
(5) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/99.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

التبيّنُ يحتاجُ إلى تأمُّلٍ ونَظَرٍ، لأن المقام خطير

آثر التّعبيرَ بالتّبيّن، لأنّ معناه العلمُ، يُقال تبيّنتُ الشّيءَ: علمْتُه، والتّبيّنُ يكونُ لما فيه إشكالٌ فيكونُ فيه تأمّلٌ ونظرٌ، وهذا هو المناسبُ لسياقِ الآية، لأنّ أمرَ الاستغفارِ للمُشركين حدثَ فيه ما يُوجبُ التّبيّنَ عن طريق الوحي، وذلك بإعلامِ اللّه رسولَه ﷺ بالنّهي عنِ الاستغفار، بخلافِ التّثبّتِ فإنّه يأتي في أمرِ الأحداثِ، فالعربُ تقولُ: تثبّتْ في أمرِكَ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضِي ﴿تَبَيَّنَ﴾:

تحقّقُ مصيرِ المشركين إلى النّارِ فلا عُذْرَ لمَنْ يَستغفِرُ لهم

عبّرَ بالماضِي للدّلالةِ على تحقُّقِ وجوهِ البيانِ، وذلك من خلالِ هذه الآيةِ الّتي بيّنتْ منعَ الاستغفارِ، ومِن وصْفِه لهم بأنّهم أصحابُ الجحيم، وأيضًا من قولِه ﷺ قبل ذلك في سورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48].

سِرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الجمْعِ (هم): ﴿لَهُمۡ﴾:

خطابُ النّهي عنِ الاستغفارِ للمُشركين عامٌّ يشملُ النّبيَّ ﷺ وأمّتَه

عبَّر بضميرِ الجمْعِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾، للدّلالةِ على أنَّ المرادَ الرّسولُ ﷺ وأصحابُه الكرامُ في هذا النّهي بعدمِ الاستغفارِ للمشركين، لأنّه كما تروي كتبُ السّنّةِ أنّ الرّسولَ ﷺ قال لعمّه أبي طالب عندما حضره الموتُ وطلبَ منه إعلانَ الشّهادةِ ولم يقُلْها: (لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك)، وأيضًا أنَّ بعضَ المؤمنين كان يستغفرُ لأبوَيْه المشركَيْن وتعلَّل باستغفارِ إبراهيمَ لأبيه، فنزلتِ الآيةُ بالمنْعِ بعد ذلك[2].

سِرُّ حذْفِ متعلّقِ البيانِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

تظافرُ الأدّلةِ على مصيرِ المشركين إلى الجحِيمِ

حُذفَ مُتعلّقُ البيان لتعدُّدِ صُوَرِه، إمّا أن يكونَ عن طريق الوحي بأن نَزَلَ قرآنٌ يُسَجِّلُ عليهم ذلك كإخبارِه تعالى عن أُناسٍ

(1) الشيرازي، الموضح في وجوه القراءات وعللها

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.

مِنَ الجاحِدين المعانِدين من أصحابِ النَّارِ خالدِين فيها، أو أنَّهم طُبِعَ على قلوبِهم أو خُتِمَ عليها[1]، أو من خلالِ بيانِ حالِهم الّتي ماتُوا عليها باستصْحابِ حالةِ الكُفرِ إلى الموتِ، فالنَّهيُ حاصلٌ بسببِ موتِهم على الكُفرِ، وإصرارِهم عليه، وعدمِ اعترافِهم بدينِ الإسلامِ[2]، وظهورِ ذلك لدَى المؤمنين.

دلالةُ التَّأكيدِ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾:

دلَّ التّأكيدُ على أنّ المشركين استحقُّوا هذا العذابَ لِما فعلُوا من إذايةٍ للمسلمين ومن عنادٍ للحقِّ ومقاومةٍ له حتى ماتُوا على ذلك وهمْ للحقِّ كارهُونَ.

استحقَّ المشركون نارَ جهنّمَ جزاءً بما قدّمتْ أيْدِيهم

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصْحَٰبُ﴾:

عبّرَ بالأصحابِ في قولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ للدّلالةِ على أنّهم مُلازمُوهَا ومُلابسُوها بحيث لا يُفارقونَها حسبَ ملازمَتِهم في الدُّنيَا لما يَسْتَوْجِبُها منَ الأسباب[3]، فعبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن هذه المُلازمةِ بالصُّحبةِ بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ومعنى الصُّحبةِ في الأصلِ: الاقترانُ بالشَّيءِ، والغالبُ في العُرْفِ أن تُطلقَ على الملازَمةِ، ففي الصُّحبةِ معنى الوصْلَةِ فسُمُّوا أصحابَها لاتِّصالِهم بها وبقائِهم فيها، فكأنّهم ملكُوها فصارُوا أصحابَها[4]، لأنّ هذا التَّعبيرَ يُشعرُ بأنّهم مقصُورون عليها ومقصُورةٌ عليهم، وتدلُّ بمفهومِ المخالَفةِ على أنّهم لا أهليَّةَ لهم للجنَّةِ[5].

بيانُ شِدَّةِ الملازمةِ لها وعدمِ مُفارقتِهم إيَّاها

سِرُّ اختيارِ الجحِيمِ دونَ غيرِها من أوصَافِ النّارِ:

آثرَ التّعبيرَ بوصْفِ الجحيمِ دونَ غيرِه من أوصَافِ النّارِ، لأنّ

وصفُ النّارِ بالجحيمِ يتناسبُ مع كِبْرِ المشركين وجَبْرُوتِهم

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/414.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/116.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/30.

الجحيمَ نارٌ على نارٍ وجمرٌ على جمرٍ، ويُطلقُ وصْفًا لكلّ نارٍ شديدةِ التّأَجُّجِ بعضِها فوق بعض، وكان هذا الوصفُ هو المناسبُ لهؤلاء المشركينَ المعانِدين الّذين ماتُوا على شِركِهم، وكانُوا قبْلَ ذلك في الدّنيَا يُحاربون اللّه ورسولَه، ويُؤذُون رسولَ اللّه وأصحابَه، فناسبَ وصفُ الجحيمِ لِما كانُوا عليه منَ الكِبْر والطّغيانِ والجبَرُوتِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»